المحاضرة الحادية عشر:

البعد النقدي للشروح

1-مفهوم الشروح:

أولا-مفهوم الشروح لغة:

جاء في لسان العرب " الشرح: الكشف، يقال: شرح فلان أمره أي أوضحه، وشرح مسألة مشكلة: بيّنها، وشرح الشيء يشرحُه شرحا، وشرّحه: فتحه وبيّنه وكشفه. تقول: شرحت الغامض إذا فسّرته. والشرح البيان، والشَّرح الفهم."

ثانيا-مفهوم الشروح اصطلاحا:

الشروح هي ضرب متميّز من المؤلفات تسعى لجمع وتفسير الأشعار، و" التي صُنعت لدواوين الشعراء مفردة، أو لديوان قبيلة كهذيل، أو لمجموعات شعرية كالمعلقات"

ومن أبرز العلماء الذين عُرفوا بالاهتمام بجمع الأشعار، وتفسيرها في شكل شروح: "أبو عمرو بن العلاء (ت154هـ) الذي عني بجمع أشعار العرب مع بعض الإيضاح والتفسير. وعلى نهجه سار المفضل الضّبي (ت168هـ)، وأبو الخطاب الأخفش (ت177هـ)، وخلف الأحمر(ت180هـ)، ويونس بن حبيب (ت182هـ) وغيرهم."

2-نشأة الشروح:

مرّ الشعر العربي بمراحل مختلفة منذ العصر الجاهلي حيث غاب عنه التدوين، والجمع لظروف الحياة الجاهلية آنذاك، وصولا إلى عصر التدوين، والجمع والشرح، وكذا النقد. و" ظهرت الشروح الشعرية نتيجة لعمليات الرواية والتدوين والجمع، لذا كانت مجالا مهمًّا للباحثين والشارحين وذلك للكشف عن معاني الشعر، وجمالية اللغة العربية في جميع النصوص الشعرية. وقد تعدّدت الأسباب والدوافع التي أدت إلى ظهور الشروح الشعرية، ومن تلك الأسباب: العامل الديني (خدمة التفسير القرآني، وتفسير الحديث)، وتفشي اللّحن، واختلاط العرب بالعجم، وقصور لغة التخاطب اليومي عن لغة الشعر الجاهلي، والمجالس العلمية، وغيرها من النشاطات."

3-القيمة النقدية للشروح:

لم يكن العرب في العصر الجاهلي بحاجة لشرح، وتفسير الشعر، ذلك أن عصرهم ضمّ فحول الشعراء العرب فكانوا يعيشون بينهم، وينظمون الأشعار بلسانهم المتداول في قبائلهم، وكانت معانيهم مستمدة من حياتهم وبيئتهم، إلاّ ما تعلّق ببعض المعاني، أو الأماكن، التي كانوا يسألون الشاعر نفسه عن قصده فيها، أو يستفسرون عنها من راوية أشعاره، من ذلك ما أورده ابن قتيبة في " الشعر والشعراء" عن عُبيد راوية الأعشى (ميمون بن قيس) حين سأله: "ماذا أردت بقولك:

ومُدامة ممّا تُعتّق بابلُ كدم الذّبيحِ سلبتُها جِرْيالَها

فقال الأعشى: شربتها حمراءَ وبُلتها بيضاء، والجريان اللون."

واستمر هذا الحال في القرن الأول الهجري، أما في القرن الثاني الهجري فقد برزت جهود بعض العلماء الرواة الذين اهتموا بجمع الأشعار، والوقوف عند بعض اللمحات التفسيرية، المتعلقة بمناسبة القصيدة وظروفها، أو قصد الشاعر، أو بعض أخبار العرب وأيامهم، كما نجد بعض الإشارات النقدية الخاصة بمعاني الشعر.

وإلى جانب أهمية جمع الشعر العربي، التي ركّز عليها هؤلاء العلماء، في جمعهم، وروايتهم للشعر، فقد برزت بعض الملامح النقدية في شروحهم ذلك أنهم توقّفوا عند معاني وألفاظ الأشعار، بالشرح، والتفسير، والتعليق، وكذا تصويب ما اعتقدوا فيه الخطأ من ذلك ما جاء في كتاب " الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء" عن الأصمعي في قوله: قرأت على خلف شعر جرير فلما بلغت قوله:

فيا لك يوما خيرُه قبل شرّه تغيّب واشيهِ وأقصرَ عاذله

فقال: وَيْله! وما ينفعه خير يؤول إلى شرّ؟ قلت له: هكذا قرأته على أبي عمرو. فقال لي: صدقتَ، وكذا قال جرير، وكان قليل التنقيح مشرّد الألفاظ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلاّ كما سمع. فقلت: فكيف كان يجب أن يقول؟ قال: الأجود له لو قال:* فيا لك يومًا خيرُه دون شرّه * فارِوه هكذا، فقد كان الرواة قديما تُصلح من أشعار القدماء. فقلت: والله لا أرويه بعد هذا إلاّ هكذا."

وتميّز شرح الأخفش للشعر عن سابقيه من العلماء ذلك أنه كان يدرج شرح البيت تحته مباشرة في حين أن النهج المعتمد قبله هو شرح القصيدة، أو المقطوعة الشعرية والتعليق عليها مجتمعة، وقد تبعه في ذلك علماء القرن الثالث الهجري، أمثال المبرد، وابن قتيبة، السكري، وثعلب، وكان الاتجاه اللغوي هو الأغلب في شروحهم.

وشهدت شروح القرن الرابع تميّزا واضحا، ذلك أنها لم تعد مؤلفات يسعى فيها أصحابها لجمع الشعر وتوضيح بعض غريبه، بل حملت بين سطورها ملاحظات بلاغية، ولغوية، تخص الألفاظ والمعاني، تكشف عن توجه نقدي لدى أصحابها كالآمدي، والمرزباني، والصولي، وأبو محمد الأنباري وغيرهم، من العلماء الذين اتّجهت شروحهم " إلى عرض الروايات المختلفة، وشرح المعنى بصور متعددة، وعناية الشراح بالنواحي الأدبية والنقدية والبلاغية في أثناء تحليلاتهم لمحتوى النص الشعري، والموازنات والمقارنات."

واستمرّ اهتمام الشروح في القرنين الخامس والسادس بالإلمام بمختلف الجوانب المتعلقة بالنصوص الشعرية، من شرح للألفاظ والمعاني، ووقوف عند وجوه البلاغة والنحو فيها، وكذا بعض الإشارات النقدية.